حماية الحريات الدينية في الإسلام

أ. قدوم سلاط

جامعة العربي التبسي

تبسة-الجزائر

تمهيد:

تعد الحرية من أبرز الحقوق الطبيعية والضرورية للإنسان التي أكدت عليها الشرائع السماوية والأرضية، فلا قيمة لحياة الإنسان بدونها، فحين يفقد المرء حريته يموت داخلياً، وإن كان في الظاهر يعيش ويأكل ويشرب، ويعمل ويسعى في الأرض، فإنسانيته تقتضي حريته في الاختيار و في الفعل والترجيح والموازنة بين الأشياء أو الحكم عليها وتقديرها، ولو لم يكن للإنسان هذا الاستعداد لكان هو والحيوان سواء، لأنه لا يستطيع أن يفرق بين ضار ونافع، وبين حسن وقبيح، ومن ثم لا يجد مجالاً للاختيار والترجيح، ومجال حركته في الحياة عندئذ هو أنه يساق حيث يريد غيره لا حيث يريد هو، ويدفع نحو ما يحقق مصلحة غيره دون ما يحقق مصلحته الخاصة.

ولما كانت الحرية بهذه الدرجة من الأهمية، عدها الإسلام من أهم المقاصد التي ينبغي تأمينها المحافظة عليها والذود عنها. وحتى لا يبقى كلامنا هذا مجرد ادعاء، فإنه يتوجب علينا الإجابة على جملة تساؤلات تطرح نفسها بقوة . والتي تمثل محور الإشكالية التي يدور حولها موضوع البحث . من قبيل: ما هي محددات وحدود هذه الحرية ؟ ما موقعها ومكانتها (الحرية) داخل النصوص الشرعية؟ كيف حماها الإسلام وحافظ عليها وما المنهج المتبع في ذلك؟ وما أبرز المواقف العملية الشاهدة على ذلك؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة وذلك وفق النقاط التالية:

أولاً . معنى حرية المعتقد

الإسلام دين يقدر الحريات الفردية والجماعية، لذلك ضمن للناس حرية الاعتقاد ودافع عنها وعمل على صيانتها وحمايتها، ولقد تعددت النصوص المؤكدة لهذا المبدأ والحامية له والمدافعة عنه، بل جسده النبي صلى الله عليه وسلم عملياً في البدايات الأولى لإرساء قواعد الدولة الإسلامية، ووثيقة المدينة شاهدة على ذلك، « . . لليهود

دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم» (1)، حيث أسست للاحترام القانوني لعقائد الغير، وعدم الإكراه في فرض المعتقدات.

فحرية المعتقد تعني: أن يكون لكل إنسان الحرية الكاملة في اختيار أي دين شاء، وله أن يقيم شعائر دينه بحرية تامة، ويستتبع ذلك احترام بيوت العبادة، حيث يحافظ عليها ويمنع من هدمها أو تخريبها، سواء في السلم أو في الحرب، ويمكن المتدين من ممارسة شعائر عباداته التي تتفق مع عقيدته (2).

ولقد جعل الإسلام الأساس في الاعتقاد أن يكون الاختيار سليماً من غير ضغط أو إغراء، وهي مقررة للمسلمين وغيرهم، فمن قبل الإسلام فله ذلك، ومن أراد غيره فهو حرّ في اختياره وفي البقاء على دينه ومذهبه وعقيدته، كما له الحرية التامة في الدخول في الإسلام بقناعة واختيار، وفي البلاد الإسلامية للمشارك البقاء على شركه، وللإهودي حرية ممارسة شعائره والتمسك بعقيدته، وللمسيحي كذلك حرية ممارسة عبادته وطقوسه من غير اعتراض من أحد سواء بطريقة خافتة أو سرية أو بطريقة علنية، وله أن يتعلم بمدرسته ما يشاء ويكتب ما يشاء، ويقارن بين عقيدته وبين غيرها من العقائد في حدود النظام العام والآداب العامة.

وعليه حرية المعتقد تقوم على جملة من العناصر(3):

1 . تفكير غير خاضع للتقليد، فلا يصح الإسلام تقليداً لأحد من أصول أوقادة أو غيرهم.

2 . منع الإكراه على عقيدة معينة، بتعذيب أو تهديد، أو إغراء بالمحرمات والخبائث

3 . أن يكون الفرد حرّاً في العمل بمقتضى دينه، لا يمنعه اضطهاد من الظهور بدينه وإقامة شعائره.

1 - السيرة النبوية : لإبن هاشم، ت/ مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، دار احياء التراث العربي، ج2، ص147

2 - انظر حق الحرية في العالم : وهبة الزحيلي، دار الفكر دمشق، ط 1 2000، ص 138

3 - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : محمد أبو زهرة، ص 193 - 194

وقد قررت الشريعة جملة من التدابير لحماية حرية العقيدة (1) :

1 . إلزام الناس باحترام حق الآخرين في اعتقاد ما شاؤوا، وفي ترك ما يريدون، طبقا لعقائدهم، فليس لأحد إكراه آخر على تغيير عقيدته، أو إيذاؤه بسبب ممارسة عبادته.

2 . إلزام صاحب العقيد نفسه أن يعمل على حماية عقيدته والدفاع عنها، ولو بالهجرة حيث يتسنى له القيام بواجباته الدينية دون أذى أو تضيق : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » (2).

قال القرطبي :والمراد بقوله (ألم تكن أرض الله واسعة): ألم تكونوا متمكنين قادرين على الهجرة والتباعد ممن كان يستضعفكم؟ (3).

3 . دافع الاسلام عن عقائد الناس بكل الوسائل، بل جعل من أبرز أسباب القتال الاعتداء عن حريات الناس وعقائدهم، قال تعالى : « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ».

هذا إذا كانت الدولة قادرة على حماية صاحب العقيدة، بأن يكون يعيش تحت نظامها فهي تحميه وتدعو الجميع إلى التعايش السلمي معه، أما في البلاد الأخرى فهي تدافع عن حريته بكل وسيلة، لأن من أبرز أسباب مشروعية القتال . كما أشرنا . حماية حرية العقيدة.

ثانيا . حرية المعتقد في النصوص الشرعية:

1 - أنظر حق الحرية في العالم، وهبة الزحيلي، ص138،139، نقلا عن التشريع الجنائي الإسلامي : عبد القادر عودة 31-33

2 - النساء 97 - 99

3 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ت/عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1 مؤسسة الرسالة، ج7،

ولقد تعددت النصوص وتتنوعت في تقرير حرية العقيدة، وما يستتبعها من ممارسات عملية، والمتتبع لهذه النصوص يلاحظ حرص الشارع الحكيم على صيانتها والذود عنها، حيث نجد من النصوص ما يهدف إلى منع الإكراه، ونجد نصوصاً أخرى تدافع عنها وتصونها من كل ما من شأنه أن يشوش عنها.

1 . النصوص المانعة من الإكراه على الدين : هناك نصوص صريحة تقر الحرية الدينية أو الاعتقادية، وتمنع من الإكراه على الدخول في الإسلام بأي وسيلة من وسائل الإكراه، وهذا يتماشى مع اشتراط الحرية والاختيار في صحة الإسلام، ويلتقي مع منطق الأشياء وطبيعة التدين.

ومن هذه النصوص : آيات قرآنية تعد دستور المسلمين في أحكام التعامل مع غيرهم منها قوله تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي: إن الإكراه على التدين ممنوع شرعاً، وممارسة الإكراه على الإيمان مستنكر عقلاً، يقول ابن كثير رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فانه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداة الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيد الدخول في الدين مكرها مقسورا(1).

وقد نزلت هذه الآية في قوم من الأنصار أو في رجل منهم، كان لهم أولاد قد هودوهم أو نصرورهم، فلما جاء الله بالإسلام أرادوا إكراههم عليه، فنهاهم الله عن ذلك حتى يكونوا هم يختارون الدخول في الإسلام. عن ابن عباس (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: (كانت المرأة من الأنصار تكون مقلتاً لا يعيش لها ولد، فتتذر إن عاش ولدها أن تجعله مع أهل الكتاب على دينهم، فجاء الإسلام وطوائف من أبناء الأنصار على

دينهم فقالوا: إنما جعلناهم على دينهم ونحن نرى أن دينهم أفضل من ديننا، وإذ جاء الله بالإسلام فلنكرهنهم فنزلت (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، فكان فصل ما بين من اختار اليهودية والإسلام، فمن لحق بهم اختار اليهودية ومن أقام اختار الإسلام. عن ابن عباس (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) في قوله: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (1)، قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): ألا استكرههما فإنهما قد ألبيا إلا النصرانية فأُنزل الله فيه ذلك (2).

ومن النصوص المانعة للإكراه قوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (3).

ومنها ما جاء لحسم الأمر في مسألة الاعتقاد، بعد نزول القرآن واستقرار التشريع، وبيان الأدلة والبراهين على أصل العقيدة الصحيح، قال تعالى: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُلَاعَنُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» (4).

فلا حاجة لاتخاذ السيف أو الإكراه لحمل الناس على التدين، ومن يختار الكفر أو الإسلام، فهو يتحمل تبعه اختياره.

ومن النصوص القرآنية الدالة على إقرار هذه الحرية آيات أخرى منها: «فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ» (5)

1- البقرة 256

2- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج1، ص313

3- يونس 99

4- الكهف 29

5- الغاشية 21 - 26

« وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل » (1)، « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ » (2).

2. نصوص تدافع عن حرية المعتقد:

وهي كثيرة منها قوله تعالى: « الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (3)، قال ابن كثير: (أي لولا انه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور الناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيف) (4).

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة » (5).

وهناك آيات تدعو إلى التعايش الديني وتبادل المودة والمحبة والمسالمة مع غير المسلمين، قال تعالى: « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (6).

ثالثاً - منهج القرآن في ضمان حرية المعتقد

أقر الإسلام بوضوح تام حرية الاعتقاد لكل الناس، فلا إكراه لأحد على اعتناق الإسلام، وإن كان يدعوهم إليه ويرغبهم فيه، والدعوة إلى دخول الإسلام والإكراه عليه أمران متضادان تماماً، فالأول جائز مشروع، والثاني حرام ممنوع، و الإسلام يرى أن

1- الأنعام 107

2- الكافرون 1

3- الحج 40

4- المرجع السابق، ج3، ص227

5- رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة، رقم الحديث: (3052) وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، الألباني، ج2، ص: (59).

الإيمان الصحيح المقبول، هو ذلك الإيمان الذي يجيء وليد يقظة عقلية واقتناع قلبي، إنه استبانة الإنسان العاقل للحق، ثم اعتناقه عن رضا ورغبة، لذلك عرض الإسلام نفسه على الناس في دائرة هذا المعنى المحدد، غير متجاوز له في قليل ولا كثير، فكان هدفه من دعوته الآخرين توضيح مبادئه، وأن يمكن الآخرين من الوقوف عليها، فإذا شاءوا قبلوها واعتنقوها، وإذا شاءوا أعرضوا عنها وتركوها⁽¹⁾.

قال تعالى: « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا » (2).

وسلك في ذلك منهجا فريدا من نوعه:

1. تحديد وظيفة صاحب الرسالة

إن الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها، هي التي حددت وظيفة صاحب الرسالة ! حيث بينت أن وظيفته في هذا المجال لا تعدو الشرح والبيان، واستخدام القلم واللسان في تحبيب دينه للناس، وترغيبهم في قبوله، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثالا في سلوك هذا المنهج.

إن الوحي الذي تنزل كان محور دعايته، فهو يقرؤه على الناس ويسجله في صحائف هادية لمن يرغب في الإطلاع عليه، هذه هي خطته في إبلاغ رسالته⁽³⁾، قال تعالى: « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ » (4)، « فذكر إنما أنت لست عليهم بمسيطر » (5). ويقول: « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ

1 - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة : محمد الغزالي، دار المعرفة، الجزائر
بط، ص 60

2 - الكهف 29

3- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة : محمد الغزالي، ص 60

4 - ق 45

5 - الغاشية 21 - 22

لَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (1) «
 ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (2)، « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
 الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا
 انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .

هذه نصوص صريحة تحدد وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم، ووظيفة الدعاة من
 بعده وهم يدعون الناس لديهم، حيث تتوقف عند البيان والتذكير وبالتى هي أحسن،
 وللناس بعد ذلك الحرية التامة في اختيار دينهم وعقائدهم، متى وكيفما شاؤوا.

2. نتركهم وما يدينون

ومن القواعد الأساسية في معاملة غير المسلمين، ضمن هذا الإطار، ما يروى عن
 الإمام علي رضي الله عنه "قاعدة" (نتركهم وما يدينون) (3). أي أن لهم الحرية التامة
 في اعتقاداتهم وممارساتهم، ماداموا على عهودهم، ويلتزمون بأداب النظام العام، وذلك
 مستمدا من قوله تعالى: « فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »،
 فلا يجوز التدخل في شؤونهم الخاصة، خاصة ما تعلق منها بأمر الاعتقاد، والشواهد
 التاريخية على هذه القضية كثيرة، منها عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلى يهود
 المدينة الذي جاء فيه « . . . لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم إلا من
 ظلم وأثم » (4)، ورسالته صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه في
 اليمن والتي جاء فيها « ولا يفتنن يهودي عن يهوديته » (5)، وأيضا عهد النبي صلى

1 - يونس 99

2 - النحل 125

3 - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: أبو بكر بن مسعود الكساني، كتاب الغصب

4 - السيرة النبوية : لإبن هشام، 503/1

5- أنظر الخراج : ليحي القرشي، ص 72

الله عليه وسلم إلى أهل نجران الذي جاء فيه «..ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، وليس عليه دنية» (1)

وقد حفظ رجال الدين من سطوة الحروب، فقد جاء في الحديث النهي عن قتل أصحاب الصوامع أي رجال الدين والرهبان والعباد، تطبيقاً لمبدأ عدم الإكراه في الدين، حيث قال صلى الله عليه وسلم: « لا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » (2).

وفي خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لجيشه التي وجهها لتحرير العراق والشام جاء قوله: « . . . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » (3).

وجاء في عهد عمر الفاروق رضي الله عنه إلى أهل الفرس، ضماناً واضحة لحريتهم الدينية وحرمة معابدهم وشعائهم (هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إلبا من الأمان : أعطاهم أمناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها ويريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار منهم) (4).

وعند دخول المسلمين مصر، كان أول عمل قام به عمرو بن العاص رضي الله عنه هو ترسيخ مبدأ (لا إكراه في الدين)، وذلك لمحو كل آثار الضغط والإكراه عن أهل مصر الأقباط، الذين تعرضوا لضغوطات شديدة من الروم بسبب مخالفتهم في المذهب الكنسي، فأرسل عمرو رسالة إلى البطريرك القبطي (بنيامين)، يدعوه فيه للعودة إلى كنيسته، بعد أن بقي متخفياً فترة طويلة من الزمن، حيث استقبله عمرو بكل حفاوة، ومنحه صلاحية إدارة شؤون طائفته (5).

1 - الخراج، لأبي يوسف بن إبراهيم الأنصاري، ص 78

2 - رواه أحمد في مسنده (300/1)

3 - تاريخ الرسل والملوك : (246/2)

4 - المرجع السابق (449/2)

5 - الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني، حسن الزين، دار

الفكر الحديث، بيروت 1988، ص 57

ولأهل الذمة في ديار الإسلام أن يؤدوا شعائهم الدينية على أكمل وجه، فحرية ممارسة العبادة وأداء الشعائر من الأمور البديهية التي يتضمنها أي عقد، أو معاهدة يبرمها المسلمون مع غيرهم.

ولعل من أروع الأمثلة على هذا التسامح الرفيع - رغم أنه لم يكن هناك عقد أو معاهدة - هو سماح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، لوفد نصارى نجران، المؤلف من حوالي ستين شخصا، بدخول مسجده الشريف وجلسهم فيه فترة طويلة، وعندما حان وقت صلاتهم قاموا متوجهين إلى المشرق ليصلوا صلاتهم، فقام المسلمون لمنعهم من ذلك، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم عن ذلك، وتركهم يصلون في طمأنينة (1).

وجاء في عهد خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى سكان غانات (مجموعة قرى قرب بيت المقدس) ما نصه (... على أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم) (2).

وإن من أعظم الشواهد الواقعية على حرية المعتقد في الإسلام، هو ما يرى الآن من أماكن العبادة : الكنائس، والمعابد والأديرة منتشرة في كل مكان من بقاع العالم الإسلامي، وهي شواهد عيان تتطرق بحرية التعبد التي جاء بها الإسلام، فلو أن المسلمين مارسوا الإكراه أو الاضطهاد ضد أتباع الملل والنحل، لما شوهد برج كنيسة واحدة ولما سمع صوت ناقوس في بلاد الاسلام بعد ذلك.

بل إن القرآن الكريم، جعل حماية المعابد وأماكن العبادة أحد الأسباب التي أبيض لأجلها الجهاد في الإسلام، وذلك في قوله تعالى : « **أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** » (3).

1 - السيرة النبوية (574/1)

2- الخراج لأبي يوسف، (ص 58)

3 - الحج 39 - 40

فالآية الكريمة تدل على أنه لولا ما شرع الله تعالى للأنبياء وللمؤمنين من جهاد الأعداء، لاستولى أهل الشرك والكفر على أماكن العبادة، ولتعطلت عبادة الله تعالى في تلك الأماكن، ولكنه أوجب القتال ليتفرغ أهل الأديان للعبادة. فالمسلم يبذل دمه وروحه وكل ما يملك لأجل حماية العابدين من أهل الملل المختلفة واستمرار بقاء معابدهم.

يقول ابن القيم الجوزية (إن الله يدفع عن متعبدهم التي أفروا عليها شرعاً وقدرًا، فهو يحب الدفع عنها، وإن كان يبغضها، كما يحب الدفع عن أربابها وإن كان يبغضهم)⁽¹⁾.

فأهل الأديان في بلاد الإسلام لهم دينهم، كما للمسلمين دينهم قال تعالى: «لكم دينكم ولي دين».

3. الفصل يوم الفصل:

لما كان الاختلاف من طبائع البشر، ولما كان التنوع والتعدد من سنن الله، فإن الإسلام لا يقف في وجه السنن، بل يتعامل معها كواقع إرادة الله تعالى، ولا تغيير لخلق الله « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا »⁽²⁾، والإسلام ليس من أهدافه أسلمة كل الناس وتوحيدهم على دين واحد، والمسلمون ليسوا مكلفين بمحاسبة الناس والفصل والقضاء بينهم في عقائدهم.

إن القرآن الكريم وهو دستور المسلمين ومصدرهم الأول، يعلمهم بكل وضوح، أن كل الاختلافات في الدنيا يمكن أن يكون لها قضاة يفصلون فيها، إلا نوعاً واحداً، فليس له قضاة في الأرض، ألا وهو الاختلاف في الرأي والاعتقاد الديني بين أصحاب الرسالات السماوية، والطرائق الأخرى من مجوس وصائبة ومشركين، رغم ما قد يحدث بسبب هذا الاختلاف من فتن يتسبب فيها أصحاب العقائد المختلفة، إلا أن القرآن حسم

1 - أحكام أهل الذمة : ابن قيم الجوزية، ت/يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن التوفيق العاروري، رمادي للنشر والتوزيع دار بن حزم ط1، 1418 - 1997، ج2، ص795

ذلك بقوله: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (1)

هذه الآية ولها نظائر تقتضي بأن الفصل والقضاء بين الطوائف الدينية خاص بالله تعالى، ولن يكون في الحياة الدنيا وإنما سيكون يوم القيامة، إنما دعوة عامة إلى الناس أن لا يثيروا الخلافات الدينية الحساسة، لأنها لن يتولد عنها خير، ولن ينفك عنها شر فهي آفة مدمرة، وعلى الناس أن يستشعروا الرابطة الأسرية الكبرى التي بينهم فأبوهم آدم وأمهم حواء، وكثيرا ما خاطبهم القرآن « يا بني آدم »، فلم لا يعيشون عيشة الأسرة الواحدة ويرجئون كلمة الفصل بينهم إلى من إليه مصيرهم؟ (2)، ولعلي بن أبي طالب في ذلك شعر جميل

والناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفأخرون به فالطين والماء

وكما كان الإسلام حكيما في صرف الناس عن تلك الخلافات كان حكيما كذلك في البديل الذي ملأ به فراغ الحياة وهو :

4. التنافس في عمل الخير : فذلك أجدى من التناحر، ولدينا في القرآن آيات لتأصيل هذا المبدأ الإسلامي الحكيم، قال تعالى: « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » (3)، جاءت هذه الآية عقب الحديث عن أهل الكتاب وموقفهم من تحويل القبلة، فكان الخطاب عاما للبشرية كلها، فعمل الخير ينبغي أن يكون هو شاعلنا جميعاً، ويوم نعود إلى الله يفصل بيننا بالحق، أما الآية الثانية « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

1 - الحج 17

2- مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهاج وسيرة : عبد العظيم المطعني، دار الفاروق، ط1، 2005، ص 77 - 79

3 - البقرة 148

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (1).

وقد جمعت هذه الآية بين المبدئين السابقين في عمل الخير وترك الفصل في الخصومات الدينية إلى الله وحده.

هكذا هياً الإسلام كل ما يمكن لتحقيق التعايش السلمي بين الشعوب والأديان، ثم ألقت إلى أهل الكتاب خاصة ووضع بينهم وبين المسلمين جسورا متينة من الود والتقارب، لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى، يمثلون فصيلين كبيرين في التشكيل البشري، وإذا أمكن التقارب بينهم وبين المسلمين كان الأمل كبيراً في تحقيق التعايش السلمي. لذلك يكثر الحديث عنهم بأنهم أهل الكتاب، وأحياناً بذكر اليهود باسمهم والنصارى باسمهم، مؤثراً ذلك على وصفهم بالكفر والشرك أو الضلال، قال تعالى « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» (2)

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» (3)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (4).

رابعا . بعض مجالات الحرية:

1 - المائدة 48

2 - المائدة 71

3 - النساء 171

4 - آل عمران 64

الحرية في نظر الإسلام حق لا يتجزأ ولا يتبعض و لا يتخصص، فالناس كلهم عيال الله وعباده وخلقه، وقد اقتضت الحكمة الإلهية وجود أنواع الإنسان بنزعات ومذاهب وانتماءات متنوعة، ليتحقق التكامل والتفاوت في الكون.

وهذا يقتضي توفير الحرية الشخصية للمسلم وغير المسلم على السواء والتمام، بل لا توجه المسؤولية لغير المسلم ولا تقتضي عدالة القضاء تحميله مسؤوليته، إلا إذا كان حرّاً مختاراً تصدر أفعاله وتصرفاته عن إرادة واختيار.

وقاعدة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين الذين يتعايشون مع المسلمين، هي كما قررها فقهاؤنا « لهم مالنا وعليهم ما علينا ».

قال ابن عابدين « فإن قبلوا دفع الجزية فلهم ما لنا وعليهم ما علينا من الإنصاف - المعاملة بالعدل والقسط - والانتصاف - الأخذ بالعدل - والمراد أنه يجب لهم علينا ويجب لنا عليهم لو تعرضنا لدمائهم وأموالهم أو تعرضوا لدمائنا وأموالنا ما يجب لبعضنا على بعض عند التعرض » (1).

وهذا مستمد من قول الإمام علي رضي الله عنه « إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودمائهم كدمائنا » (2)

ومصدر ذلك كله الحديث النبوي الذي أخرجه أبو داود و البيهقي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حججه يوم القيامة » (3).

1 . حرية غير المسلمين في إقامة شعائرهم التعبدية والالتزام بدينهم

1 - رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، محمد أمين بن عمر عابدين، دار عالم الكتب، 2003

307/3، وانظر حق الحرية : وهبة الزحيلي، ص 95

2 - نصب الرأية 381/3

3 - أبو داود: في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات،

إن الإسلام لا يمنع غير المسلمين من إقامة دينهم بحرية كاملة، بل ويسمح لهم بإظهار شعائرتهم في أراضيهم التي صولحوا عليها، ولا يسمح لهم بإعلان ذلك في أرض المسلمين، وقد سئل ابن عباس هل للمشركين أن يتخذوا الكنائس في أرض العرب؟ فقال: «أما ما مصر المسلمين فلا ترفع فيه كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار ولا صليب، ولا ينفخ فيه بوق، ولا يضرب فيه ناقوس، ولا يدخل فيه خمر ولا خنزير، وما كان من أرض صولحت صلحاً، فعلى المسلمين أن يفوا لهم بصلحهم» (1).

ولما فتحوا الشام لم يهدموا شيئاً من الكنائس التي كانت موجودة، بل تركت على حالها (2)، كما أنهم يقرون على الخمر والخنزير والربا إذا ستروه ولم يظهره (3).

ويجوز للإمام أن يجعلهم يتحاكمون إلى أهل دينهم ولا يحكم بينهم، كما قال تعالى: «فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (4).

قال الزهري: (مضت السنة أن يردوا في حقوقهم ومواريتهم إلى أهل دينهم إلا أن يأتونا راغبين في حد نحكم بينهم فيه، فنحكم بينهم بكتاب الله (5)، وذلك إذا تحاكموا بينهم أقر حكمهم، وإذا كان ذلك يؤدي إلى الفوضى، فللإمام أن يحكم بينهم بكتاب الله منعا للفساد، قال ابن جرير (ونحن مخيرون إن شئنا حكمنا بينهم بحكمنا وإن شئنا تركناهم وحكمهم) (6) وقد كتب محمد بن أبي بكر إلى علي رضي الله عنه يسأله عن

1 - الصنعاني، المصنف 6/60

2 - أبو يوسف، الخراج 286

3 - القرطبي، الكافي 1/484

4 - المائدة 42

5 - الصنعاني، المصنف، ت/ حبيب الرحمان الأعظمي، ط3، 1983، المكتب الإسلامي بيروت،

ج6، ص62

6 - المرجع نفسه، 6/62

مسلم زنى بنصرانية، فكتب إليه أن أقم الحد على المسلم وادفع النصرانية إلى أهل دينها (1).

وحاصل القول أن غير المسلمين لهم الحرية الكاملة في عبادتهم، وممارساتهم التي يقرها دينهم، بشرط أن لا يكون في ذلك استنزاع للمسلمين، لأنهم بذلك أدخلوا بالنظام العام، كما أن لهم حرية التحاكم إلى محاكمهم الخاصة دون الرجوع إلى حكم الإسلام.

2. حريتهم في الدعوة إلى دينهم والمجادلة عنه

فلهم أن يعلموا صبيانهم دينهم، كما لهم الاجتماع لتدريس أمورهم وذكر محاسن دينهم بينهم بحرية تامة، كما أن لهم محاوره علماء المسلمين والمجادلة معهم عن دينهم بالتي هي أحسن، ولهم في موقف الحوار أن يذكروا شبهاتهم في دين الإسلام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم حاور اليهود والنصارى بل والمشركين، واستمع إلى شبهاتهم وأجاب عنها، (إلا أنه ليس لهم أن يسيئوا استعمال هذه الحرية، أو حرية إبداء الرأي فيقوموا مثلاً بالتجوال في أنحاء الدولة الإسلامية لحمل المسلمين على الردة عن الإسلام، بحجة التعليم أو إبداء الرأي، لأن الردة جريمة في نظر الإسلام، ولا تجوز المساهمة في وقوع الجريمة) (2).

وذلك أنهم إذا فتوا مسلماً عن دينه، أو سبوا الله عز وجل أو كتابه أو دينه، أو سبوا النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ينتقض العهد بذلك عند جمهور أهل العلم (3). وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يجوز نقد الإسلام وإبداء الرأي فيه بكل حرية من غير تقييد (4).

1 - المرجع نفسه، 62/6

2 - أحكام الذميين في الشريعة الإسلامية، زيدان عبد الحكيم، ط 2، 1976، بغداد، ص 101

3 - الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب

العلمية، بيروت 1978، ص 10

4 - حقوق أهل الذمة، المودودي، دار الفكر (د ت)، ص 32

وقال بعضهم وإذا كان الإسلام قد أطلق حرية التفكير، فإنه من الطبيعي أن يتبعها بحرية التعبير عن هذا الفكر بشتى أنواع التعبير، أي سواء أكان تعبيراً باللسان أو القلم، وهذا ما يسمى بحرية الرأي. (1)

3. حرية الفكر والتعليم

عندما أرسى الإسلام قواعد المجتمع الإسلامي، كان من بين أسسه نشر العلم بين كل فئات ذلك المجتمع، وكان غير المسلمين من بين أولئك الذين تم نشر العلم بينهم، وأبلغ دليل على ذلك هو كثرة الإنتاج العلمي الذي ظهر على أيدي غير المسلمين في شتى المجالات العلمية، حيث اشتهرت أسماء علماء كثر من غير المسلمين كانوا يعيشون ضمن المجتمع الإسلامي.

فليس في أحكام الشريعة ما يمنع غير المسلمين من حرية الفكر والتعلم، فلهم تعليم أبنائهم وتثقيبتهم وفق مبادئ وتعاليم دينهم، وكذلك إنشاء المدارس الخاصة بهم، كانت أول مظاهر تلك الحرية قد ظهرت في تطبيقات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، إذ كان من ضمن الغنائم التي آلت إلى المسلمين بعد فتح خيبر، مجموعة كبيرة من نسخ التوراة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بردها إلى أصحابها اليهود مباشرة (2).

ونقل أن عمرو بن العاص رضي الله عنه محرر مصر قد سمع بعالم من اليعاقبة يدعى (يوحنا النحوي)، كان في بدء حياته ملاحاً، فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو في سن الأربعين، حتى اعتبر من فلاسفة عصره وأطبائهم، فاستدعاه عمرو بن العاص وأكرمه لعلمه، وقيل: إنه نشأت صداقة بينهما متينة. (3).

وفي عهد هارون الرشيد الخليفة العباسي، وضع جميع المدارس في بغداد تحت إشراف (حنا مسنية) الشهير بـ (يوحنا بن ماسويه). (4)

1- معالم الثقافة الإسلامية، عثمان عبد الكريم مؤسسة الرسالة، ط10، 1983، ص 64

2 - أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص 101

3- الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية: محمد عبده، ط3، 1988، ص 81 (الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ التاريخ الموضوعات: بسام داود عجك، ص 49

4 - الإسلام والنصرانية، ص 16

وكان حنين بن إسحاق النصراني العبادي من المقربين إلى الخليفة المتوكل العباسي، ويترجم له الكتب، فيعطيه بوزنها ذهباً، وكان أهل طائفته يحسدونه لحظوته عند الخليفة وخصوصاً (الطيפורي النصراني)، فحكم عليه مجلس الأساقفة بحرمانه من الكنيسة، فمات غماً من اضطهاد طائفته له. (1)

4. حرية التنقل

كان لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي حرية التنقل والحركة والسفر والترحال من بلد لآخر، في أي وقت شاؤوا ولأي اتجاه ساروا، إلا مناطق خاصة بالمسلمين لا يحق لهم دخولها، لأسباب تتعلق بالعقيدة الإسلامية وهي مناطق الحرم الشريف (2)، لقله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (3).

ولكن حرية التنقل للتجارة وغيرها في سائر بلاد الإسلام هي حق ثابت لهم، فقد جاء في المعاهدة التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل إيليا النصراني قرب خليج العقبة، (بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر : لهم ذمة الله وذمة محمد النبي صلى الله عليه وسلم ومن كان معهم من أهل الشام واليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من برّ وجر) (4).

وكان هذا المبدأ - حرية التنقل والحركة - سارياً في كل المعاهدات التي أبرمت مع غير المسلمين، ومن تلك المعاهدات معاهدة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مع

1 - الإسلام والنصرانية، ص 20

2 - المغنى (531/8)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية : أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1405 _ 1985، ص 167

3 - التوبة 28

4 - السيرة النبوية (526/2)

أهل بعلبك في الشام، جاء فيها (...ولتجارهم أن يسافروا حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها)⁽¹⁾.

هكذا ضمن الإسلام لغير المسلم الحرية التامة غير المنقوصة لأنه ببساطة يعتبر الإنسان الطبيعي هو ذلك المخلوق المستعد لأن يفكر ويوازن فيما يفكر فيه، ثم يختار ما يراه جديراً بالتنفيذ، هو الحر فيما يعتقد، والحر فيما يعبر، والحر فيما يفكر، و فيما يعامل به غيره، والحر فيما يملك وفيما يقتني، ولا ضابط لحرية هذه إلا إبعاد الأذى عن نفسه وعن غيره⁽²⁾.

خامساً . المسلمون والممارسة العملية للحرية

إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي فإننا سنجد حافلاً بالمواقف العديدة التي تدل على تسامح المسلمين وتطبيقهم لمبدأ الحرية على وجه العموم، وإن حصلت مخالقات فهي شاذة مخالفة للنهج الصحيح الذي رسمته الشريعة الإسلامية⁽³⁾. ويظهر ذلك في المواقف التالية على سبيل المثال لا الحصر.

1 . معاملات النبي صلى الله عليه وسلم لغير المسلمين: وهي كثيرة نذكر منها :

أ- عندما أسس النبي صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية لم يتعرض لليهود المقيمين في المدينة بسوء، بل وضع معاهدات معهم تكفل للجميع الحرية والعيش المشترك بسلام، حتى نقض اليهود تلك المعاهدات⁽⁴⁾.

ب- معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران لما قدموا المدينة، فإنه عليه الصلاة والسلام حاورهم وأراد مبايحتهم فرفضوا، وقد صلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشرق فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ذلك.

ج- معاملته عليه الصلاة والسلام للمشركين ويتضح ذلك مما روت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أُمِّي وهي راغبة في عهد رسول الله صلى الله عليه

1 - فتوح البلدان (ص 136،)

2 - انظر الدين والحضارة الإنسانية : محمد البهي، ص 105

3- الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه، خالد بن عبد الله القاسم، ص 96

4 - المرجع نفسه.

وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أصلها ؟ قال نعم. قال ابن عيينة : فأُنزل الله تعالى : « لَا يَنْهَأُكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (1).

وحسبنا في ذلك معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين لما فتح مكة، فإنه عفا عنهم وقال « اذهبوا فأنتم الطلقاء » (2)، رغم ما وجد منهم من استهزاء وتعذيب وتكذيب انتهت بمحاولة قتله وإخراجه من مكة.

د- إن أهل الكتاب خاصة الذين وفوا بعهودهم عاشوا في ظل دولة النبي صلى الله عليه وسلم آمنين مطمئنين، وحسبنا في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم، وهو زعيم الدولة مات ودرعه مرهونة عند يهودي من صاع من شعير (3).

2 . معاملة الخلفاء الراشدين لغير المسلمين

كانت معاملة الخلفاء لغير المسلمين المسالمين تدل على أسى معالم الحرية، ومن ذلك أن خالد بن الوليد لما فتح الشام، صالح الروم على عدم هدم شيء من كنائسهم، قال أبو يوسف : (فتركت البيع والكنائس لم تهدم لما جرى من الصلح بين المسلمين وأهل الذمة، ولم ينكر ذلك الصلح على خالد بن الوليد خليفة المسلمين آنذاك أبو بكر الصديق، ولا رده عمر ولا عثمان ولا علي) (4)

ويذكر حنا النيقى : « أن المسلمين في مصر وافقوا على عدم احتلال أي كنيسة، وعلى ألا يتدخلوا في شؤون الأقباط بأي صورة من الصور، ويذكر أن عمرو بن العاص جبي الضرائب المفروضة لكنه لم يمد يده قط إلى شيء من أملاك الكنائس،

1 - رواه البخاري

2- سيرة ابن هاشم 41/4

3 - رواه البخاري

4 - الخراج : أبو يوسف 294

ولم يأت بعمل من أعمال النهب والتدمير، بل لقد حافظ على البيع حتى آخر حياته «
(1).

ولم يكره عمرو بن العاص أحداً من سكان مصر على الإسلام، ولو كان هناك إكراه ما بقي الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة، بل إن أقباط مصر كانوا يشعرون بالعدالة في ظل الدولة الإسلامية، ولا أدل على ذلك من قصة ذلك القبطي الذي لطمه عمرو بن العاص في سباق للخيل، فرحل إلى الخليفة في المدينة ليأخذ حقه له رغم مشقة السفر وطول الطريق، فلما وصل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعا ابن عمرو بن العاص وأمر المصري بضره وقال مقولته الشهيرة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ». (2)

إن الناظر لتاريخ مصر يجد الفرق شاسعاً بين دخول الإسلام لمصر ودخول المسيحية، فالمسيحية ظلت غريبة على أهل مصر بينما اجتذب الإسلام أقباط مصر. (3).

وأشار يوحنا إلى أن أسقف نقيوس - عاش في القرن السابع الميلادي - قال: (إن فتح المسلمين لمصر وشمال أفريقيا جلب للقبط حرية دينية بعد ضغط البيزنطيين (4)، فالخلفاء الراشدون ضمنوا الحرية لجميع أفراد الدولة الإسلامية بما في ذلك غير المسلمين، وقد التزموا المنهج الإسلامي في معاملة غير المسلمين، فشهد الجميع بفضلهم وعدلهم حتى غير المسلمين، يقول الأب بروغلي: (إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين ذوي دراية وذكاء، منهم أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام دولة فسيحة الأرجاء، فأحسنوا سياستها وكانا ذوي ثبات وعدل وقناعة وفضل، وكانا أرفع قدرًا

1- أهل الذمة في الإسلام : ترتون أب، ترجمة وتعليق حسن الحبشي، دار المعارف مصر، ط2، 1967، ص 37

2 - مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب بتصرف، ص 600

3- أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ص 105

4 - المرجع نفسه، ص 123

وأبعد مرمى من القياصرة الذين حاربوهما (1). فكانوا في غاية العدل والإحسان وإعطاء الحرية للجميع، مستشعرين قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » (2).

هكذا تجسدت حرية العقيدة في ظل الإسلام واقعيًا وفي أبرز صورها، ولم يكن التعايش مجرد شعار يرفع، وإنما تجسد ذلك عمليًا في مجتمع المدينة الأول، وفي العهود التالية له، حتى وجدنا غير المسلمين يشكلون جزءًا من رعايا الدولة الإسلامية في مختلف العصور، بل كانت لهم المناصب العليا داخل الدولة الإسلامية، ولعل وصف الشاعر الحسن بن خاقان ما وصل إليه غير المسلمين أيام الدولة العباسية أصدق مثال على ذلك:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنني نصحت لكم تهودوا فقد تهود الفلك (3)

الخاتمة

الإسلام دين سلم وتعايش، في كنفه تضمن الحقوق وتضمن الحريات، تلك هي النتيجة الطبيعية التي يمكن أن يصل إليها كل منصف متبصر يبحث عن الحقيقة بكل موضوعية وتجرد، تشهد لذلك النصوص الشرعية والممارسات العملية، والمنتجع لهذه النصوص يلحظ بوضوح كيف أسس الإسلام لمجتمع المواطنة الذي يتساوى فيه الجميع في الحقوق والواجبات وإن اختلفوا في الأصول والديانات، حيث رسخ جملة من المبادئ تعتبر القاعدة الصلبة لهذا التعايش، لعل أبرزها الحرية الدينية، التي لم تكن

1 - التعصب والتسامح بين الإسلام والنصرانية : محمد الغزالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة

2ط، 1993، ص 191 - 192

2 - المائدة 8

3 - انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متر ص74

شعارا يرفع، وإنما كانت منها ممارسا في شتى المجالات، وقد تواترت النصوص من القرآن والسنة التي تدعو الى الحرية وتدافع عنها حتى غدت حجة بارزة لهذا الدين.

إن الاسلام ينظر الى التنوع والتعدد على أنه من سنن الله التي لا مبدل و لا محول لها، وأن الاختلاف البشري جبلة أرادها الله تعالى هكذا، وليست من قبيل البدع التي يخلقها البشر، لذلك نجده يتعامل معها كواقع لإرادة الله تعالى الذي يقول: «**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**»⁽¹⁾، فالإسلام ليس من أهدافه أسلمة كل الناس وتوحيدهم على دين واحد، والمسلمون ليسوا مكلفين بحاسبة الناس والفصل والقضاء بينهم في عقائدهم، فذلك شأن الخالق لا شأن المخلوق. قال تعالى: «**إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَالدِّينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالدِّينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**»⁽²⁾

بل إن الاسلام ترجم ذلك الى جملة من المبادئ تؤسس للحريات وتدافع عنها:

1. تحديد وظيفة صاحب الرسالة

إن الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها، هي التي حددت وظيفة صاحب الرسالة !
«فذكر إنما أنت لست عليهم بمسيطر»⁽³⁾، حيث بينت أن وظيفته في هذا المجال لا تعدو الشرح والبيان، واستخدام القلم واللسان في تحبيب دينه للناس، وترغيبهم في قبوله، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثالا في سلوك هذا المنهج.

2. نتركهم وما يدينون

ومن القواعد الأساسية في معاملة غير المسلمين، ضمن هذا الإطار، قاعدة (نتركهم وما يدينون)⁽⁴⁾. أي أن لهم الحرية التامة في اعتقاداتهم وممارساتهم، ماداموا على عهدهم، ويلتزمون بأداب النظام العام، وذلك مستمدا من قوله تعالى " . . . فَمَا

1 - الفتح 23

2 - الحج 17

3 - الغاشية 21 - 22

4 - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع- كتاب الغصب

اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ⁽¹⁾، فلا يجوز التدخل في شؤونهم الخاصة، خاصة ما تعلق منها بأمور الاعتقاد، والشواهد التاريخية على هذه القضية كثيرة، منها عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلى يهود المدينة الذي جاء فيه « . . . لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، موليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم »⁽²⁾

3. الفصل يوم الفصل

لما كان الاختلاف من طبائع البشر، ولما كان التنوع والتعدد من سنن الله، فإن الإسلام لا يقف في وجه السنن، بل يتعامل معها كواقع لإرادة الله تعالى، ولا تغيير لخلق الله، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا »⁽³⁾، والإسلام ليس من أهدافه أسلمة كل الناس وتوحيدهم على دين واحد، والمسلمون ليسوا مكلفين بحاسبة الناس والفصل والقضاء بينهم في عقائدهم، فذلك شأن الخالق لا شأن المخلوق. قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ »⁽⁴⁾

4. التنافس في عمل الخير

فذلك أجدى من التناحر، ولدينا في القرآن آيات لتأصيل هذا المبدأ الإسلامي الحكيم، قال تعالى: « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات »⁽⁵⁾ ووفق هذا المنهج ضمن الإسلام لغير المسلمين حريتهم التامة، وفي مختلف مجالات الحياة، من هذه الحريات:

1. حرية غير المسلمين في إقامة شعائرهم التعبدية والالتزام بدينهم
2. حريتهم في الدعوة إلى دينهم والمجادلة عنه
3. حرية الفكر والتعليم

1 - التوبة 7

2 - السيرة النبوية : لإين هاشم، 1/503

3 - الفتح 23

4 - الحج 17

5 - البقرة 148

4. حرية التنقل

هكذا تجسدت حرية العقيدة في ظل الإسلام في أبرز صورها، في كنفها تضمن الحقوق وتمارس الشعائر، فلم يكن تعايش المسلمين مع غيرهم مجرد شعار يرفعه أتباعه، وإنما هو حقيقة تشهد لها نصوص القرآن والسنة، وتجسدها الممارسة العملية في مجتمع المدينة الأول، وفي العهود التالية له، حتى وجدنا غير المسلمين يشكلون جزءا من رعايا الدولة الإسلامية في مختلف العصور لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

المصادر والمراجع

1. أحكام الذميين في الشريعة الإسلامية، زيدان عبد الحكيم، ط2 1976، بغداد.
2. أحكام أهل الذمة :ابن قيم الجوزية، ت/يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن التوفيق العاروري، رمادي للنشر والتوزيع دار بن حزم ط1، 1418 - 1997
3. الأحكام السلطانية والولايات الدينية : أبو الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1405 _ 1985
4. الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية: محمد عبده، ط3، 1988
5. أهل الذمة في الإسلام : ترتون أب، ترجمة وتعليق حسن الحبشي، دار المعارف مصر
6. الأوضاع القانونية للنصارى واليهود في الديار الإسلامية حتى الفتح العثماني، حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت 1988
7. التعصب والتسامح بين الإسلام والنصرانية : محمد الغزالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة، ط2، 1993
8. تفسير القرآن العظيم، إبن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012
9. الجامع لأحكام القرآن، أبي عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشام للتراث، بيروت، ط2، 1952
10. حق الحرية في العالم : وهبة الزحيلي، دار الفكر دمشق، ط1 2000
11. حقوق أهل الذمة، المودودي، دار الفكر (د ت)
12. حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة : محمد الغزالي، دار المعرفة، الجزائر بط

- 13 . الحوار الإسلامي المسيحي المبادئ التاريخ الموضوعات: بسام داود عجك
- 14 . الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه، خالد بن عبد الله القاسم
- 15 . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم منتر
- 16 . الخراج، لأبي يوسف بن إبراهيم الأنصاري
- 17 . الدعوة إلى الإسلام، أرنولد توماس
- 18 . الدين والحضارة الإنسانية : محمد البهي
- 19 . رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين)، محمد أمين بن عمر عابدين،
دار عالم الكتب، 2003
- 20 . الصارم المسلول على شاتم الرسول، ابن تيمية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،
دار الكتب العلمية، بيروت 1978
- 21 . السيرة النبوية : لإبن هشام، ت/ مصطفى السقا، ابراهيم الايباري، عبد الحفيظ الشلبي،
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، دار احياء التراث العربي.
- 22 . مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهاج وسيرة : عبد العظيم المطعني، دار الفاروق،
ط1، 2005
- 23- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام : محمد أبو زهرة
- 24 . مذاهب فكرية معاصرة : محمد قطب
- 25 . معالم الثقافة الإسلامية، عثمان عبد الكريم مؤسسة الرسالة، ط10